العقائد

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والإيمان والإحسان

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله وكفى ، والصلاة والسلام على نبيه محمد المصطفى ، وعلى آله وصحبه أهل الهداية والوفا ، وبعد :

فهذا البحث يعد العمود الفقري الذي يحتكم إليه العالم الإسلامي المعاصر ، لمعرفة مدى قربهم وبعدهم الحقيقي عن إسلام القرآن أو إسلام الوحي الإلهي ، فإن من المعلوم أن الإسلام دين المستقبل ، لأنه طريق الحق والإنقاذ لمشكلات العالم البشري ، ويمكن حصر هذه المقولة بما أنزل الله في قرآنه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

غير أن هذا الخطاب موجه أولاً وقبل كل شيء إلى كل مسلم ، ليوازن بين ما هو عليه وبين حقيقة دينه ، فهناك إسلام ظاهري وإيمان قلبي ، غير أن الإيمان والإحسان ليس من السهل ادعاؤه والتزام حقيقته ، وهذه هي صورة العالم الإسلامي اليوم الذي يبلغ تعداده بحسب ما أعلنته منظمة المؤتمر الإسلامي ملياراً ومئتي مليون نسمة ، أي ما يوازي ٢٣,٢٪ من سكان العالم الذي قدرته المنظمة بخمسة مليارات نسمة ، وفي عام ٢٠٠٠[1] أي في نهاية القرن العشرين سيبلغ سكان العالم ٦ مليارات نسمة ، وسيبلغ عدد المسلمين حينئذ ملياراً وستمئة وأحد عشر مليوناً ١,٦١١ أي بنسبة ٢٦,٨٥٪ من سكان العالم .

---

(١) كتب هذا البحث قبل عام (٢٠٠٠)م .

وينبغي أن يدرك المسلمون حقيقة أخرى غائبة عن الكثيرين منهم : وهي أن العداء للإسلام من الغرب والشرق ، إنما هو لسبب واحد : وهو أنه دين الحق ، فهو متين في أنظمته كلها سواء الاعتقادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ، وأنه أيضاً الدين الذي يقف بقوة وصلابة وعزة وشموخ أمام الحضارة الغربية ، المهددة بالانهيار والسقوط ، وليس أدل على ذلك من أن الديانة البوذية يبلغ أتباعها اليوم أكثر من مليارين ، ولكن هؤلاء الأتباع لا يقيم لهم الغرب والشرق وزناً ؛ لأن البوذية مجموعة فلسفات سطحية وصوفية ، وليست نظام حياة ، فلا نجد إعلاناً من الغرب أن المواجهة مع الهنود وأمثالهم كالمواجهة مع الإسلام .

لهذا ينبغي إدراك هذه الحقيقة ، واعتصام المسلمين بحقيقة دينهم وهو الإيمان الذي هو جوهر الإسلام ، حتى يتفاعلوا مع حقائقه ، ويبنوا حضارتهم في ضوء تعاليمه .

ولعل هذا البحث المعمّق يصلح صورة موضحة لهذا الانفصام النكدي بين ظاهر المسلمين وبين حقيقة الإسلام ، والله أرجو أن يصلح المسلمون بدينهم ، كما صلح به أولهم ، فيكونوا عدة المستقبل ، ما دام دينهم هو المؤهَّل ليكون دين المستقبل .

* * *

الإسلام لغة وشرعاً

الإسلام لغة : الخضوع والانقياد لأمر غيره ونهيه ، يقال : أسلم : انقاد ، أو دخل في السِّلْم ، وأسلم أمره إلى الله ، أي سلَّم وفوض أمره إليه وانقاد ، وأسلم : دخل في دين الإسلام ، أي أصبح مسلماً ، وأسلم لله : أخلص الدين له ، جاء في القرآن الكريم : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة : ١١٢] . وأسلم الشيء : ناوله إياه ، أعطاه له . وأسلم الشخص : تركه لعدوه ، وخذله . والإسلام : الدخول في السِّلْم ، وهو أن يَسْلَم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه ، كما قال الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن . والإسلام شرعاً ـ كما ذكر الراغب ـ على نوعين :

أحدهما ـ دون الإيمان : وهو الاعتراف باللسان ، وبه يُحقَن الدم ، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإياه قُصِد بقوله تعالى : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : ١٤] .

والثاني ـ فوق الإيمان : وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل ، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدَّر ، كما ذُكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] .

أما **الإيمان** فهو في اللغة : التصديق ، ويراد به شرعاً ـ كما ذكر الراغب ـ إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب الجوارح

(الأعضاء) . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد : ١٩] . ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصِّدْق والعمل الصالح : إيمان ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤٣] . أي : صلاتكم . إلا أن الإيمان : هو التصديق الذي معه أمْن .

والإيمان فقهاً : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان . وفي الدين (العقيدة) الاعتقاد الراسخ بالله ، فإن الإيمان بالله يملأ فراغ النفس ، ويوحي بالطمأنينة : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨] .

والدين الإسلامي : وضع إلهي لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال ، والفلاح في المآل .

* * *

العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان

الدين : هو الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وهذه الأسماء الثلاثة درجات ، أعلاها الإحسان ، وأوسطها الإيمان ، ويليه الإسلام ، فكل محسن مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، وليس كل مؤمن محسناً ، ولا كل مسلم مؤمناً .

والإسلام والإيمان : حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً ، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة ، وقد يتوسع فيهما الشرع ، فيطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوز (المجاز) .

والإسلام بالمعنى العام : يتضمن الاستسلام والانقياد لله ، والسلامة التي هي الإخلاص ، وقد بُعث جميع الرسل والأنبياء بالإسلام بهذا المعنى ، كما جاء في القرآن الكريم على لسان نوح وإبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام ، قال الله تعالى على لسان إبراهيم ـ على سبيل المثال ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۚ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣١ـ١٣٢] . وانظر البقرة (١٣٣ ، ١٣٦) والمائدة (١١١) ويونس (٨٤) والنمل (٣) وكان إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين ، وأبا الأنبياء ، وجاءت الرسل من ذريته ، وكلهم يدينون بالإسلام ، أو بالدين المشترك : وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي بعث به جميع الأنبياء ، كما دل على اتحاد دينهم نصوصُ القرآن والسنة النبوية ، فمن عبد الله ، وعبد معه إلهاً

آخر ، لم يكن مسلماً ، ومن لم يعبده ، بل استكبر عن عبادته ، لم يكن مسلماً .

والإسلام بالمعنى الخاص : ما اختص الله به محمداً ﷺ من الدين والشرعة والمنهاج ، وهو الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة[١] . وهذا المعنى هو الانقياد إلى عمل الظاهر من القول والفعل ، أي : أعمال الجوارح (الأعضاء) الظاهرة ، وهو فعل الواجبات . ومبانيه خمسة ـ كما جاء في حديث عمر عند الإمام مسلم ـ : وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

وهذه المرتبة على هذا النحو أعم من الإيمان ، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً . ويجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر ، وهذا هو العمل . جاء في حديث أنس عند الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب » . وهذا لأن الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام ، للحديث الصحيح عند البخاري ومسلم وغيرهما : « المسلم : من سلم المسلمون من لسانه ويده » . والإسلام عمل محض مع قول ، وليس العلم (اليقين) والتصديق جزءاً من مسماه ، لذا كانت تتمة الحديث السابق : « والمؤمن : من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ففسر المسلم بأمر ظاهر ، وهو سلامة الناس منه ، وفسر المؤمن بأمر باطن : وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم ، وهذه الصفة أعلى من تلك ، فإن من

---

(١) الشريعة : نظام العقائد والعبادات والمعاملات وأحكام الأسرة والعلاقات الدولية العامة والخاصة . والطريقة : الأعمال المؤدية لرضوان الله . والحقيقة : بيان حقائق الأمور الشرعية والأخبار والغيبيات .

كان مأموناً ، سلم الناس منه ، وليس كل من سلموا منه يكون مأموناً .

لكن الإسلام الذي هو عمل محض مع قول ، يلزمه جنس التصديق ، فلا يكون عمل إلا بعلم ، لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بيَّنه الله ورسوله ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

والإسلام بالمعنى القرآني الخالد : هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، والإيمان بالله وبرسوله ، واتباعه فيما جاء به ، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم ، وإن لم يكن كافراً معانداً ، فهو كافر جاهل .

والخلاصة : إن الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله : هو أن يسلم العبد لله رب العالمين ، فيستسلم لله وحده لا شريك له ، ويكون سالماً له ، بحيث يكون متألهاً له ، غير متألهٍ لما سواه . ورأس الإسلام : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وله ضدان : الكِبْر والشرك أو الكفر ، فمن استكبر عن عبادة الله ، لا يعبده ، لا يكون مستسلماً له ، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به ، فلا يكون سالماً له ، بل يكون له فيه شرك . ومن أنكر رسالة النبي ﷺ ، أو أنكر شيئاً من فرائض الإسلام ، أو جحد توحيد الله ، وكذب رسوله ، إما عناداً أو جهلاً ، كان كافراً جاهلاً ، والظالم : من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه ، ثم تنكر لذلك .

ومن زعم أن الإسلام هو الإقرار ، وأن العمل ليس منه ، فقد خالف

الكتاب والسنة ، ولا فرق بينه وبين المرجئة ، إذ زعمت أن الإيمان إقرار بلا عمل .

وأما **الإيمان** في الشرع : فهو طمأنينة ويقين ، وأصله علم وتصديق ومعرفة وإقرار ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب ، وهو تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان وهو قول جماهير أهل السنة ، خلافاً لبعضهم كالطحاوي الذي قال : الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، أي أن محل الإيمان في رأيه هو القلب ، وأن النطق باللسان هو ركن زائد لتحقيق معنى الإسلام .

لكن الأصل في الإيمان : التصديق ، والعمل تابع له ، وملازم له ، ولا يكون العبد مؤمناً إلا بهما ، يقال : آمنت بالله ، وأسلمت لله ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ . . . ﴾ [الأحزاب : ٣٥] . وكان النبي ﷺ يقول : « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت » فلو كان مسماهما واحداً ، كان هذا تكريراً .

والخلاصة : إن الإيمان أخص من الإسلام ، وفسره النبي ﷺ بالاعتقادات الباطنة : وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر من الله تعالى ، وهذه أركان الإيمان .

والإيمان بالله : هو التصديق بأنه سبحانه موجود ، موصوف بصفات الجلال والكمال ، منزّه عن صفات النقص ، وأنه واحد حق صَمَد (هو وحده المقصود في الحوائج) فرد ، خالق جميع المخلوقات ، متصرف فيما يشاء ، ويفعل في ملكه ما يريد ، الإيمان بالله : أن نوحده ونصدق به وبعبارة أخرى بالقلب واللسان ، ونخضع له ولأمره بالعزم على الأداء ، مجانباً للاستنكاف والاستكبار والمعاندة ، فإذا فعل الإنسان ذلك لزم محابَّه واجتنب مساخطه ، كما ذكر ابن تيمية وغيره .

والإيمان بالملائكة : هو التصديق بأنهم عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . وعلينا أن نؤمن بمن سمى الله لنا منهم في كتابه ، ونؤمن بأن لله ملائكة سواهم ، لا يعرف أسماءهم وعددهم إلا الذي خلقهم .

والإيمان بالكتب : التصديق بالكتب السماوية المنزلة على الرسل الكرام عليهم السلام ، وهي مئة وأربعة (١٠٤) : صحف شيث ستون ، وصحف إبراهيم ثلاثون ، وصحف موسى قبل التوراة عشر ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن (الفرقان) . والإيمان بالقرآن غير الإيمان بسائر الكتب ، فالإيمان بغيره من الكتب : إقرارك به بالقلب واللسان ، وإيمانك بالفرقان : إقرارك به واتباعك ما فيه .

والإيمان برسل الله : هو أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى ، أيدهم بالمعجزات (الأمور الخارقة للعادة) الدالة على صدقهم ، وأنهم بلّغوا عن الله رسالاته ، وبيّنوا للمكلفين (البالغين العقلاء) ما أمرهم الله به ، وأنه يجب احترامهم ، وأن لا يفرّق بين أحد منهم . وعلينا أن نؤمن بمن سمى الله في كتابه من رسله ، ونؤمن بأن لله سواهم رسلاً وأنبياء ، لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم . وعلينا أيضاً أن نؤمن بمحمد ﷺ رسولاً ، وإيمانك بمحمد : إقرارك به ، وتصديقك إياه دائباً على ما جاء به ، فإذا اتبعت ما جاء به ، وأديت الفرائض ، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ووقفت عند الشبهات ، وسارعت في الخيرات ، كنت مؤمناً برسالته .

والإيمان باليوم الآخر أو البعث : هو التصديق بيوم القيامة ، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت ، والحشر (الجمع للحساب) والنشر (الإخراج من القبور) والحساب ، والميزان ، والصراط ،

والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وأنهما دار ثواب الله وجزائه للمحسنين والمسيئين ، إلى غير ذلك مما صح من النقل ، وكل ما وصَف الله به يوم القيامة .

والإيمان بالقدر خيره وشره : معناه أن الله سبحانه وتعالى قدَّر الأشياء في الأزل (القدم) وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده جل جلاله . وأن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل : لو كان كذا لم يكن كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل .

والتقادير أربعة أذكرها بإيجاز :

الأول ـ التقدير في العلم ، أي في علم الله تعالى أن شيئاً موجود أو هالك مثلاً . جاء في الحديث : « جفّ القدر على علم الله » .

الثاني ـ التقدير في اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب ، وهذا التقدير يمكن أن يتغير ، مثلاً بحسب ما يعلّق به من الأمور ، قال الله تعالى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩] . ويدفع القدر بالقدر ، كما قال عمر رضي الله عنه : « نفر من قدر الله إلى قدره » .

الثالث ـ التقدير في الرحم : وذلك أن المَلك يكتب رزق الإنسان وأجله ، وشقي أو سعيد ، أي بحسب علم الله فيه ، من دون إكراه ولا جبر ، وعلم الله لا يتغير ، وهو واحد في الماضي والحاضر والمستقبل . جاء في الحديث : « كل شيء بقدر ، حتى العجز والكَيْس » .

الرابع ـ التقدير : بمعنى سوق المقادير إلى المواقيت (الأوقات المعلومة) في الزمان والمكان والأشخاص والأحوال .

ومذهب السلف وأئمة الخلف : أن من صدّق بهذه الأمور تصديقاً جازماً ، لا ريب فيه ولا تردد ، كان مؤمناً حقاً ، سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو عن اعتقادات جازمة .

والخلاصة : إن الإيمان بالمعنى الخاص الذي يراد عند الإطلاق : هو الاعتقاد بالله رباً واحداً ، وإلهاً مفرداً بالعبادة ، لا يشرك معه غيره ؛ والاعتقاد بكل ما أوحى به إلى نبيه ، من خبر الملائكة والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، حلوه ومرّه . وصاحب هذا الاعتقاد : هو المؤمن ، فإن نقص (أنقص) منه شيئاً ، فقد صفة الإيمان .

والعمل من الإيمان ، والإيمان من العمل ، فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدّق بعمله ، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله ، كان في الآخرة من الخاسرين ، وهذا معروف عن علماء السلف والخلف أنهم يجعلون العمل مصدقاً للقول ، قال مجاهد : إن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال : « الإيمان : الإقرار والتصديق بالعمل ، ثم تلا : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقال الأوزاعي : لا يستقيم الإيمان إلا بالقول ، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة .

والمتفق عليه بين أهل السنة كلهم يقولون : كل مؤمن مسلم ، وكل من أتى بالإيمان الواجب ، فقد أتى بالإسلام الواجب ، لكن النزاع في العكس ، فليس من أتى بالإسلام يأتي بالإيمان .

تلازم الإسلام والإيمان : الإسلام والإيمان لا يختلفان عن الحكم

الأخروي ، والتفرقة بينهما في الوصف الدنيوي وبالمفهوم اللغوي فقط ، فما يكون في القلب إيمان ، وما يظهر من العلانية وممارسة الجسم إسلام . ولا يفرق بينهما بمعنى الاختلاف والتضاد ، فهما متلازمان ، فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم ، إذا أريد أن كل مسلم يدخل الجنة ، معه الإيمان الواجب . ولا يوجد مؤمن ليس بمسلم ، ولا مسلم ليس بمؤمن ، بالنسبة للنجاة عند الله تعالى يوم القيامة .

وإذا كان الإسلام والإيمان متلازمين ، لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر ، كالروح والبدن ، فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن ، ولا يوجد بدن حي إلا مع الروح ، وليس أحدهما هو الآخر ، فالإيمان كالروح فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن ، والإسلام كالبدن ، ولا يكون البدن حياً إلا مع الروح ، بمعنى أنهما متلازمان ، لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر . وإسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح ، فما من بدن حي إلا وفيه روح ، ولكن الأرواح متنوعة . وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منوراً بذكر الله والخشوع وفهم القرآن ، وإن كانت صلاته يثاب عليها ، ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا .

وهكذا الإسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة ، والإيمان بمنزلة ما يكون في القلب حين الصلاة ، مع معرفة الله والخشوع وتدبر القرآن ، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا ينعكس .

لكن قد يطلق كل من الإيمان والإسلام على ما يطلق عليه الآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] . وقد يختلف المراد من أحدهما عن المراد بالآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

غير أنه ـ كما تقدم ـ لا خلاف بين أهل السنة في أن الله تعالى أراد من العباد : القول والعمل ، وأن الإيمان الذي ينجي صاحبه : هو الذي يفيض على قلب صاحبه هداية تسوق إلى العمل النافع ، وتبعده عن المحرَّمات ، وأن الإسلام الذي ينفع صاحبه : هو الاستسلام لله تعالى ، في كل ما قضاه وقدره ، والوقوف عند حدوده ، فكل منهما جامع لعمل القلب والجوارح (الأعضاء) ، وهو الذي قصده المحدثون وغيرهم حين يقولون : الإيمان : هو قول وعمل .

والإسلام حق جماعة المسلمين ، والإيمان حق الله ، وهو الإذعان القلبي الذي لا يطلع عليه إلا الله وحده ، وهو حقه الذي لا يحاسب عليه أحد سواه . قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في الصدر ، وصدقته الأعمال .

وأما **الإحسان** : فهو كما فسره النبي ﷺ لجبرائيل في حديث عمر في صحيح مسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » . وحاصله راجع إلى إتقان العبادات ، ومراعاة حقوق الله تعالى ، ومراقبته ، واستحضار عظمته وجلاله حال العبادات . والإحسان يتناول الإخلاص وغيره ، فهو يجمع كمال الإخلاص لله ، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن ، قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

والإحسان يدخل فيه الإيمان ، والإيمان يدخل فيه الإسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من المسلمين . والدين وأهله ثلاث طبقات : أولها الإسلام ، وأوسطها الإيمان وأعلاها الإحسان . ومن وصل إلى العليا فقد وصل إلى التي تليها ، فالمحسن مؤمن ، والمؤمن مسلم ، وأما المسلم : فلا يجب أن يكون

مؤمناً . وهكذا جاء القرآن ، فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] . فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان هو الظالم لنفسه ، والمقتصد : هو المؤمن المطلق الذي أدى الواجب وترك المحرَّم ، والسابق بالخيرات : هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه . وكلهم في الجنة ، كما رجح ابن القيم في كتاب « طريق الهجرتين وباب السعادتين » .

وإذا تحقق الإسلام والإيمان والإحسان ، ظفر الإنسان برضوان الله ، وطمع في جنته ورحمته ، ونجا من عذاب النار يوم القيامة بفضل الله ورحمته ، ومن لم يؤمن بشيء من عناصر الإيمان ، كان كافراً .

وأما الإسلام وحده : فهو القيام بالأعمال المطلوبة شرعاً في الظاهر ، من غير إيمان في القلب ، فلا يكون دائماً سبباً في دخول الجنان ؛ لأنه قد يكون نفاقاً : وهو إظهار الإسلام ، وإبطان الكفر .

والمنافق : هو الذي ينطق بالشهادتين ، ويؤدي العبادة في الظاهر ، ولكنه غير مؤمن في الحقيقة ، ولا ناجٍ عند الله تعالى ، وإن كان عند الناس معدوداً من المسلمين ؛ لأن الناس لهم الظواهر ، والله وحده مطلع على السرائر والقلوب .

مراتب الإيمان : للإيمان مراتب ودرجات ، فإيمان المجاهدين والعابدين والمتهجدين والمضحّين بأموالهم وأنفسهم أعلى من إيمان من دون ذلك ، كما أن إيمان المحافظين على صلواتهم وفرائضهم ، والممتنعين عن الكبائر ، والاعتداء على أنفس غيرهم وأموالهم أعلى

من إيمان من دونهم ، وهكذا ، وهذا ينسجم مع القول بزيادة الإيمان ونقصه ، قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥ـ٩٦] . أي أن أصل الإيمان واحد ، وهو يزيد وينقص بالأعمال .

ومما يدل على زيادة الإيمان ونقصه عند جمهور العلماء : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ـ١٢٥] .

وكذلك للكفر مراتب أيضاً ؛ لأن من سلمت عقيدته ، وارتكب بعض المعاصي ، فقد يكون كافراً للنعمة ، لا خارجاً عن الملة ، أو يكون جرمه كبيراً ، وذنبه عظيماً ، كأنه كفر ، مثل ما ورد في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . وأهل السنة متفقون على أن المعصية مهما كانت كبيرة ، لا تخرج صاحبها عن الإسلام ، إذا لم تبلغ درجة الشرك ، وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة (البداهة) لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

حكم مراتب الناس في الإيمان والإسلام : الناس في « الإيمان والإسلام » على ثلاث مراتب كما تقدم : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه ، فلا بد من أن يكون معه إيمان ، ولكن لم يأت بالواجب ، ولا ينعكس ، وكذلك الحكم في الآخرة .

والمسلمون متفقون على أركان الإيمان السابقة ، وأركان الإسلام المذكورة سابقاً ، ومتفقون أيضاً على أن من أطاع الله ورسوله ، فإنه يدخل الجنة ولا يعذب ، وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله إليه فهو كافر . والخلاف بعدئذ في مرتكب الكبيرة ، كالقتل العمد وأكل الربا وأكل مال اليتيم والزنى والسرقة ونحوها ، جمهور أهل السنة يرون أنه يعذب في النار ولا يخلد فيها ؛ لأنه مسلم غير كافر ، ويرى بعض المسلمين كالخوارج في الماضي والإباضية في الوقت الحاضر أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، لكن هناك كفر دون كفر ، كما تقدم ، وفسق دون فسق .

الدعوة إلى الإيمان في رسالات الأنبياء : الدعوة إلى الإيمان بالله قديمة قدم البشرية والأنبياء ، فهناك جسور مشتركة ، وأصول عامة بين الأديان السماوية في صورتها الأولى المنزلة على أنبيائها ، تدل على وحدة الدين السماوي ، والتقاء جميع الأنبياء والرسل على مبادئ واحدة ، كالاتفاق على مبدأ توحيد الله ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان ، وتشريع العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، كالصدق والإخلاص والصدقات التطوعية ، والتزام أصول الأخلاق الكريمة ، والدعوة إلى الفضيلة ، كصلة الرحم والوفاء بالعهد وأداء الأمانات ، والامتناع عن الفواحش والقبائح ، ومكافحة المنكرات والرذائل كالكفر (جحود الله أو إنكار وحدانيته أو إنكار الوحي أو رسالة رسول ما) والقتل والزنى ، وإيذاء الناس بمختلف أنواعه ، والاعتداء على الحيوان غير المؤذي ، ووضع النظم الصالحة لحياة البشرية السعيدة وإسعاد الإنسانية ، ولا تتأثر بمقاييس مادية بحتة على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، واتفقت الشرائع الإلهية أيضاً على أصول الديانات أو الكليات الخمس الضرورية : وهي الحفاظ على

الدين (وجوداً وبقاءً) والنفس ، والعقل ، والنسب أو العرض ، والمال . وجاء في القرآن النص الصريح على هذا الهدى المشترك بين جميع الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ولم يكتف الإسلام بتقرير وحدة الدين الإلهي ، ووحدانية الإله ، وإنما كان من أصول دعوته التي كلَّف بها النبي ﷺ الدعوة إلى ذلك الدين ، الذي شرعه الله للأنبياء كلهم ، ووصاهم به ، ونبذ الفرقة والاختلاف على إقامة الدين الواحد ، والعودة إلى الأصل المشترك بين الأديان في صورتها المنزلة من عند الله على الرسل الكرام ، قال الله تعالى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٥] مما يدل بوضوح على أن ما جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء : هو إحياء لروح الدين الأصلية التي بعث بها الرسل والأنبياء ، وتكميل لشرائعه وآدابه بما يصلح الحياة الإنسانية لجميع البشر ، في كل زمان ومكان .

* * *

أركان الإسلام

عرفنا أن أركان الإسلام خمسة ، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً .

وسأقوم بتوضيح هذه الأركان بإيجاز فيما يأتي :

أولاً ـ الشهادتان : يراد بهما الإيمان بالله ورسوله محمد ، أي النطق باللسان والإقرار بالجنان بأن الله تعالى إلَه موجود ، واحد أحد ، خالق الكون والإنسان وواهب الحياة ، وبأن محمداً رسول الله ، أنزل الله عليه القرآن ، وجعله خاتم النبيين . والإيمان بالله ورسوله : هو الأساس الأول للدخول في الإسلام ، وإجراء أحكامه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

والشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة في الله ، من جهتي الربوبية (الخَلْق والتربية) والألوهية (العبادة) .

والشهادة برسالة محمد ﷺ تتضمن التصديق بكمال العقيدة في الملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام ، قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

[البقرة : ٢٨٥] .

وبعد إعلان الشهادتين تأتي بقية أركان الإسلام المعبر عنها بالعبادات الأربعة : وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وبما أن المقصود من هذه العبادات ، مع الإقرار بوحدانية الله ورسالة محمد تطهير القلب ، وتزكية النفس ، وقوة مراقبة الله التي تبعث على امتثال أوامره ، والمحافظة على شرائعه ، كانت هي دعائم الإسلام وأركانه .

ثانياً ـ الصلاة : هي أقوال وأفعال مخصوصة بأوقات معلومة ، مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم . وهي عبادة بدنية ، فرضها الله على المسلم في اليوم والليلة خمس مرات ، في أوقات منتظمة محددة ، يقف فيها المصلي مستقبلاً الكعبة المشرفة بمكة المكرمة ، تشتمل على القراءة والقيام ، والركوع والسجود ، والتسبيح والتحميد ، والدعاء ، والتشهد .

وقد شرعت لتكون صلة دائمة بين العبد وربه ، فهي معراج الهداية إلى الله ، ولتهذيب النفس ، والتحلي بالفضائل ، والبعد عن الفحشاء والمنكر ، وتعوُّد النظام ، واحترام الوقت والأمانة ، وتحقيق الصفاء النفسي ، وحب الجماعة الإنسانية ، والاهتمام بالمصالح العامة ، وتعارف المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

والصلوات المفروضة خمس : هي صلاة الصبح ركعتان فيما بين طلوع الفجر وشروق الشمس ، وصلاة الظهر أربع ركعات : ما بين الزوال (دلوك الشمس وسط النهار) وصيرورة ظل كل شيء مثله ، وصلاة العصر أربع ركعات : ما بين انتهاء وقت الظهر إلى غروب

الشمس ، وصلاة المغرب ثلاث ركعات : ما بعد غروب الشمس ومغيب الشفق الأحمر من الأفق ، وصلاة العشاء أربع ركعات : ما بعد زوال شفق الشمس إلى ما قبل طلوع الفجر ، وهي الصلاة الأخيرة .

أمر الله تعالى بهذه الصلوات في قوله سبحانه : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

وتؤدى هذه الصلوات إما منفرداً أو جماعة ، وفي يوم الجمعة : صلاة الجمعة ركعتان بدلاً عن الظهر ، تؤدى بجماعة في المساجد .

وهناك صلوات خاصة كصلاة العيدين ، وصلاة الكسوف أو الخسوف وصلاة الاستسقاء ركعتين ، وصلاة الجنازة أربع تكبيرات بالدعاء إلى الميت .

وللفرائض سنن رواتب قبلية أو بعدية : وهي ركعتان قبل الصبح ، وركعتان أو أربع قبل الظهر وبعده ، وأربع قبل العصر غير مؤكدة ، وركعتان بعد العشاء ، ثم صلاة الوتر ، أقله ركعة وأكثره إحدى عشرة ركعة . ومن السنن المؤكدة : صلاة الضحى ركعتان إلى ثمانٍ ، وقيام الليل أو التهجد في الثلث الأخير من الليل .

والصلاة أقدم عبادة بدنية عرفت في الرسالات الإلهية ، وهي تالية لعنصر الإيمان .

ثالثاً ـ الزكاة : هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، وهي واجبة في كل مال له صفة اجتماعية عامة ، مخالطة للجماعة أخذاً وعطاء ، وإنتاجاً ، وتأثراً ، وإنماء واستمداداً . وتجب في خمسة أنواع من الأموال : النقود الرائجة أو السبائك المدخرة ، وعروض التجارة ، والزروع والثمار ، والمواشي أو الأنعام السائمة (الإبل والبقر والغنم) والمعادن والركاز (دفين الجاهلية) . وكلها تؤدى على الفور في العام

مرة واحدة ، بشرط وجود النصاب الشرعي (في النقود مثلاً ما يعادل ٨٥ غم ذهب أو حوالي ٥٩٥ غم فضة ، وفي الزروع والثمار ٦٥٣ كغ) وبشرط حولان الحول (مضي عام) ما عدا زكاة الزروع والثمار التي تؤدى بعد الحصاد أو الجداد (القطع) فوراً .

والزكاة عبادة مالية يقصد بها تطهير المال وتحصينه ، وتحقيق ما يسمى بالتكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء ، لتكون عوناً للفقير على استعادة نشاطه الاقتصادي ، وليست إبقاء على الفقر ، وهي حق معلوم ، لا مِنّة فيه للغني ، قال الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] . ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج : ٢٤ـ٢٥] .

وتصرف الزكاة لمصارف محددة في قوله تعالى : ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٠] .

رابعاً ـ الصيام : هو الركن الرابع من أركان الإسلام ، وهو صوم شهر رمضان كل عام مرة ، على الصحيح القادر البالغ العاقل ، وهو الامتناع عن الأكل والشرب والاستمتاع الجنسي ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، بقصد امتثال أمر الله ، ويقصد منه تعويد الإنسان على عفة اللسان ، والنفس عن الشهوات والأهواء ، وتربية الإرادة ، والصبر ، ورقابة الله في السر والعلن ، وإشراق النفس وتهذيبها وصفائها ، والتدرب على التقوىٰ (امتثال الأوامر واجتناب النواهي) فضلاً عما يحققه الصوم من الصحة والعافية ، المشار إليها في الحديث النبوي ، الذي رواه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة :

« صوموا تصحوا » . وهو كغيره فريضة قديمة على الإنسان ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي لتحققوا التقوى ، وتحذروا المعاصي ، فالصوم يعد نفس الصائم لتقوى الله ، وتطهير النفس بترك شهواته المعتادة ، امتثالاً لأمر الله ، واحتساباً للأجر عنده ، علماً بأن الصوم كغيره من التكاليف الشرعية قائم على اليسر والسماحة ، والقدرة الممكنة للإنسان ، من غير مشقة زائدة (غير محتملة) .

خامساً ـ الحج : هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو عبادة قديمة معروفة ، من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] . تنتظم من الإنسان قلبه وبدنه وماله ، وتعبر عن معنى التقديس والتعظيم للإله المعبود ، إلا أن الإسلام جعل له شعائر معينة ، تنبئ كلها عن معانٍ روحانية عميقة ، وعبودية خالصة مطلقة لله عز وجل ، لا أثر فيها للماديات من أحجار وأوثان ، وأنهار وأشجار وغيرها . وممارسة مناسك الحج والعمرة (الزيارة) وأداء شعائرهما ، تدل على صلة وثيقة بالله تعالى ، وتحتاج إلى حسن الثقة والإيمان بالله تعالى .

ويقوم المسلمون بالحج في زمان معلوم ، ـ أما العمرة (الزيارة) فليس لها وقت محدد ـ وفي أمكنة معلومة ، امتثالاً لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، ويحققون به منافع مادية وأدبية ، كالتعارف والتآلف ، وتبادل الرأي والمشورة في أوضاع المسلمين وقضاياهم العامة ، فهو مؤتمر إسلامي كبير ، يشعر فيه المسلمون بالمساواة التامة ، ويعوّدهم الصدق والصراحة في القول والعمل ، والتضحية والإيثار والطهر والصفاء ، والترفع عن مواطن الإثم والطغيان ، وانتقاص الحقوق والواجبات .

ويبتدىء الحج بالنية الخالصة لله (الإحرام) مع تجرد الرجال من الثياب المخيطة ومن أصناف الزينة والترف ، ثم الطواف بالبيت الحرام (طواف القدوم) والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات والمشعر الحرام (المزدلفة) والمبيت في منى لرجم إبليس في الجمرات الثلاث (الكبرى والوسطى والصغرى) لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، وذبح الهدي (ما يساق للفقراء حول الكعبة من المواشي) ثم طواف الإفاضة ، وطواف الوداع ، والتحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير في وقت معين ، وهو صبيحة يوم عيد الأضحى ، وكل ذلك في أيام معلومات ، ونيته في أشهر معلومات : وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] والعمرة : إحرام وطواف وسعي وتحلل بعدئذ . وقال سبحانه : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . وفي آية أخرى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج : ٢٧-٢٨] . وثواب الحج كما جاء في الحديث الصحيح في الكتب الستة عن أبي هريرة : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

والخلاصة : إن العبادات في الإسلام ـ وإن اختلفت صورها ـ تلتقي عند غاية واحدة ، وهي تحقيق معنى العبودية لله ، بالإخلاص في طاعته والتوجه إليه وحده ، والاستعانة به وحده ، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة .

* * *

الشريعة الإسلامية

التشريع مصدر شرّع ، مأخوذ من الشريعة ، ثم جُعل الشرع اسماً للطريق النَّهْج (أي : المنهج القويم) ، واستعير ذلك للطريقة الإلهية ، كما قال الراغب الأصفهاني . والشريعة في اللغة لها معنيان :

أحدهما ـ الطريقة المستقيمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية : ١٨] .

والثاني ـ مورد الماء الجاري الذي يقصد للشرب ، ومنه قولهم : شرعت الإبل : إذا وردت شريعة الماء .

والتشريع : سَنّ الشريعة ، وبيان الأحكام ، وإنشاء القوانين ، ومصدره في الإسلام : الوحي الإلهي الوارد في القرآن والسنة . ثم أطلق لفظ الشريعة أو الشرع أو الشرعة في لسان الفقهاء على الأحكام التي سنّها الله لعباده ، ليكونوا مؤمنين ، عاملين بما يسعدهم في الدنيا والآخرة . وسميت هذه الأحكام شريعة ؛ لأنها مستقيمة محكمة الوضع ، لا ينحرف نظامها ، ولا تلتوي عن مقصدها ، كالجادة المستقيمة . قال صاحب كشاف اصطلاحات الفنون : الشريعة : ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم ، وسواء كانت متعلقة بكيفية عمل وتسمى فرعية عملية ، ودُوّن لها علم الفقه ، أو بكيفية الاعتقاد ، وتسمى أصلية واعتقادية ، ودوِّن لها علم الكلام .

وقصر بعض العلماء المعاصرين الشريعة على الأحكام العملية ؛ لأن

هذه الأحكام هي التي تمثل المنهج الذي يختلف به الإسلام عن سائر الأديان السابقة ، قال الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] قال ابن عباس : الشِّرعة : ما ورد به القرآن ، والمنهاج : ما وردت به السنة . وقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ﴾ [الشورى : ١٣] إشارة إلى الأصول التي تتساوى فيها الملل ، فلا يصح عليها النسخ ، كمعرفة الله تعالى والنبوة ونحو ذلك من أصول الاعتقاد أو الإيمان السابقة .

والمعروف في عصرنا أن الشريعة الإسلامية : هي النظم التي شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ بها الإنسان نفسه في علاقته بربه ، وعلاقته بأخيه المسلم ، وعلاقته بأخيه الإنسان ، وعلاقته بالكون والحياة .

وقد أحكمت قواعد هذه الشريعة ، وأقيمت أسسها ، وكملت أصولها في زمن النبي ﷺ ، كما أبان قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . لكن مجال الاجتهاد في أحكام الشريعة الفرعية أو المتجددة والطارئة ، أمر مشروع ، وما يزال قائماً في كل وقت ، مفتوح الباب في كل عصر ، لمن كان أهلاً للاجتهاد : وهو الذي توافرت عنده ملكة استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية . وتتوافر لمن علم بمصادر الشريعة وقواعدها وبالعربية وأصول الفقه .

مصادر الشريعة :

ليس للعقيدة الإسلامية إلا مصدر واحد ، وهو القرآن الكريم الصريح الحاسم في معناه ، أما في الأحكام العملية ، فمصادر الشريعة متعددة وهي ما يلي :

أولاً ـ القرآن الكريم : نصه القطعي ، ومحتمله ، أي الظني غير القطعي الدلالة ، وهو المصدر الأصلي الأول للشريعة ، وهو الوحي الإلهي الحق ، المنزَّل على قلب رسول الله ﷺ بنصه ومعناه الدائم الخالد ، شرعاً محكماً إلى يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ـ١٩٥] . والدليل على كونه كلام الله : إعجازه .

وتنوعت أحكام القرآن ، فلم تقتصر على القانون الواجب التطبيق في العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وإنما تضمن الأحكام الخاصة بالعقيدة الدينية والأخلاق والعبادات والمعاملات ، لتتكامل شخصية المؤمن به ، وتتآزر الأحكام المختلفة في تكوين المجتمع الفاضل ، وتتربى الأمة تربية سامية ، يؤهلها لوصف الله لها بأنها﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ثانياً ـ السنة النبوية : وهي أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته التشريعية ، بشرط ثبوتها ، أي صحة نقلها عنه .

ثالثاً ـ الرأي : عن طريق النظر في محتمل القرآن والسنة ، وفي إلحاق ما لم ينص على حكمه بما نص على حكمه ، وفي تطبيق القواعد الكلية المأخوذة من جزئيات التشريع على الحوادث الواقعة ، مثل قاعدة : (الأصل في الأشياء الإباحة) و(المشقة تجلب التيسير) و(الضرر يزال) و(العادة محكَّمة) و(اليقين لا يزول بالشك) و(سد ذرائع الفساد) و(حفظ المصالح) و(رعاية الحوائج) و(درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) وغير ذلك من القواعد الكلية أو العامة للتشريع .

والرأي أو الاجتهاد ـ كما تقدم ـ مختص بالمجتهدين الذين تتوافر لديهم ملكة الاجتهاد : وهي القدرة على استنباط الأحكام الشرعية من

أدلتها التفصيلية . وهو يشمل الإجماع ، والقياس ، والاستصلاح ، أو المصالح المرسلة ، والاستحسان ، والعرف ، وشرع من قبلنا ، ومذهب الصحابي ، والذرائع ، والاستصحاب ونحوها .

واعتبار العرف وشريعة من قبلنا ليس من باب الإحالة أو الإسناد إلى مصدر آخر ، وإنما بسبب إقرار الشرع الإسلامي الرجوع أحياناً إلى العرف القائم على رعاية الحاجة أو المصلحة ، ودفع الحرج والمشقة ، والتيسير في الأحكام ، من دون معارضة أو مصادمة مع النصوص الشرعية ، وشرع من قبلنا مأخوذ مما ورد في القرآن والسنة النبوية ، مع السكوت عنه من دون إلغاء ، مثل قسمة المال المشترك بطريق المهايأة (تبادل الانتفاع) زماناً أو مكاناً ، المأخوذة من قصة ناقة صالح عليه السلام : ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر : ٢٨] ومشروعية الجعالة (المكافأة أو الوعد بالجائزة) المأخوذة من قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٢] .

أنواع أحكام القرآن : أحكام القرآن الكريم ثلاثة :

النوع الأول ـ الأحكام الاعتقادية : وهي التي تتعلق بما يجب على الإنسان اعتقاده في الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر من الله تعالى ، كما سبق بيانه .

النوع الثاني ـ الأحكام الخلُقية : وهي التي تتصل بما يجب على الإنسان أن يتحلى به من الفضائل ، ويتخلى عنه من الرذائل ، كالصدق والجود والكذب والبخل .

النوع الثالث ـ الأحكام العملية : وهي المتعلقة بما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات ، وهي تشمل نوعين من أحكام التشريع :

أولاً ـ أحكام العبادات : من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، ونذر ، ويمين ، وكفارة ، ونحو ذلك من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه .

ثانياً ـ أحكام المعاملات : من عقود وتصرفات ، وعقوبات وجنايات وغيرها مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات . وهذه الفئة من الأحكام تشتمل على ما يلي :

١) **أحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية** ، من زواج وطلاق ونفقات وحقوق الزوجين والأولاد والقرابة : وهي التي تنظم شؤون الأسرة من بدء تكوينها إلى نهايتها ، وتبين ما يجب أن تكون عليه علاقات الزوجين والأقارب بعضهم مع بعض .

٢) **أحكام المعاملات المدنية** : وهي المتعلقة بمعاملات الأفراد أو الأشخاص الطبيعيين ، والاعتباريين كالشركات والمؤسسات ، ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وشركة وكفالة ووكالة وقرض أو مداينة ووفاء بالالتزام . ويقصد بها تنظيم علاقات الأشخاص المالية ، وحفظ حقوق أصحاب الحق ، وإلزام من يجب عليه الحق بحفظه وحمايته ووفائه كاملاً غير منقوص .

٣) **الأحكام الجنائية** : وهي التي تبين أحكام الجرائم التي يرتكبها الإنسان وما يستحقه عليها من عقوبة ، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وكراماتهم وحقوقهم وواجباتهم ، وتحديد علاقة المجني عليه بالجاني وبالأمة أو المجتمع .

٤) **أحكام المرافعات أو الإجراءات أو أصول المحاكمات** : وهي التي تتصل بالقضاء (المحاكم) وطرق الإثبات بالشهادة أو الإقرار أو اليمين أو القرائن ونحوها لإثبات الحقوق ، وإجراءات الدعوى ،

ويقصد بها تنظيم الإجراءات لإقامة ميزان العدالة والحق ، ومنع التظالم بين الناس .

٥) **الأحكام الدستورية** : وهي ذات الصلة بنظام الحكم وأصوله ، وبالدولة وواجبات الإمام الحاكم وحقوقه ، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم ، وتقرير ما للأفراد والجماعات من حقوق .

٦) **الأحكام الدولية** : وهي المتعلقة بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول ، وبمعاملة غير المسلمين المواطنين في داخل الدولة الإسلامية ، ويقصد بها تحديد علاقة الدول الإسلامية بغيرها في وقت السلم والحرب ، مثل تنظيم المعاهدات وأحكام الأسرى وغير ذلك ، وتحديد علاقة المسلمين بغيرهم في بلاد المسلمين .

٧) **الأحكام المالية** : وهي التي تتعلق بحقوق الأشخاص المالية والتزاماتهم في نظام المال كسباً وإنفاقاً ، وحقوق الدولة وواجباتها ، وتنظيم موارد الخزانة العامة ونفقاتها . ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء ، وبين الدولة والأفراد ، والإسهام في الأعباء المالية التي تتعرض لها الدولة في أوقات الأزمات كالحروب ونحوها .

وهذه تشمل أموال الدولة العامة والخاصة ، كالغنائم الحربية أو الأنفال ، والعشور (الرسوم الجمركية العادلة) والخراج (ضريبة الأرض الزراعية) ومعادن الأرض وموارد الطبيعة الخام ، وأموال المجتمع ، كالزكاة والصدقات والنذور والقروض ، وأموال الأسرة ، كالنفقات والمواريث والوصايا ، وأموال الأشخاص ، كأرباح التجارة والإجارة والشركات وكل مرافق الاستغلال والإنتاج ، والعقوبات المالية ، كالكفارات والديات والفدية وجزاءات الحرم المكي أو الإحرام بحج أو عمرة .

خصائص التشريع القرآني : يمتاز التشريع القرآني بعدة خصائص تكفل له الخلود والبقاء ، والثبات والاحترام ، وأهم هذه الخصائص ما يأتي :

١ـ كونه رباني المصدر : فهو ثابت بلفظه ومعناه بالوحي الإلهي من الله تعالى ، على يد جبريل الأمين ، ومطبوع في قلب النبي ﷺ طبعاً راسخاً لا ينمحي ولا يتغير ولا يتبدل ، كما أوضح القرآن ذاته : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ـ١٩] وآية : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى : ٦ـ٧] .

ثم بلَّغ هذا النبي المعصوم جميع ما أنزل إليه من ربه لأمته ، ودُوِّن في المصاحف بعد نزول الوحي به مباشرة ، وتناقلته الحفّاظ والأمة جيلاً عن جيل بالتواتر (النقل الجماعي الذي لا يتصور فيه الخطأ أو التواطؤ على الكذب) حفظاً ثابتاً في الصدور ، كتابة أو تدويناً في السطور ، من دون نقص شيء منه أو زيادة عليه ، خلافاً للكتب السابقة التي فقدت أو ضاعت ولم تدون مباشرة ، بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

والدليل القاطع على أن القرآن المجيد كتاب الله ووحيه : هو إعجازه وتحدي الأمم والأفراد في كل عصر وقطر أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، أو بآيات عشر من مثله ، أو بكله ، كما ذكر في آيات كثيرة (مثل الآية ٢٣ من سورة البقرة للتحدي بسورة ، والآية ١٣ من سورة هود للتحدي بعشر سور ، والآية ٨٨ من سورة الإسراء للتحدي للإتيان بمثله) .

ووجوه الإعجاز كثيرة ، منها سمو بلاغته ورفعة فصاحته ، وإخباره

بأخبار الأمم السابقة ، وإعلامه بوقوع أحداث في المستقبل ، وحدثت كما أخبر ، وتطابق إشارات آيه في العلوم والكون مع الثابت من الاكتشافات والنظريات العلمية ، واشتماله على تشريع متكامل منسجم ينظم أحوال الفرد والجماعة ، وصلاحيته لكل زمان ومكان : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

٢ـ **كونه إنساني النزعة** : غير متأثر بعصبية أو إقليمية معينة ، ولا بعرق أو جنس أو عنصر معين أو شعب محدد حتى أتباعه ، وإنما هو منفتح غير مغلق ، وللناس قاطبة ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] وقال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . وجميع أحكام الشريعة يسيرة غير عسيرة ، فيها المرونة والسماحة من غير تشديد ولا إحراج أو إعنات (مشقة) ، قال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة ١٨٥] . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . وجاء في السنة فيما رواه الخطيب عن جابر : « بُعثت بالحنيفية السمحة » .

٣ـ **تحقيق التوازن والانسجام بين المصلحتين الخاصة والعامة أو الفردية والجماعية** : من دون إلحاق ضرر بيِّن أو كبير بإحدى المصلحتين ، مع تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند التعارض . وهذا محور وسطية الإسلام ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . من أمثلة ذلك : إقرار الملكية الفردية أو الخاصة ، وجعلها ذات وظيفة اجتماعية ، لتتجه نحو خير الأمة أو الجماعة ، ويجوز نزع الملكية الخاصة لصالح الجماعة

(التأميم) كتوسعة مسجد وبناء مؤسسة صناعية حيوية ونحو ذلك ، ويجوز بيع مال المدين جبراً عنه لوفاء دينه ، وتشريع الشفعة (حق تملك العقار المبيع جبراً عن المشتري بسبب الشركة أو الجوار ، منعاً للضرر أو النزاع) ومنع التعسف في استعمال الحق ، ومنع اتخاذ الملكية الخاصة سبيلاً للإضرار بالآخرين ، والاعتراف بالملكية الجماعية أو المشتركة كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أسمر بن مضرِّس : « الناس شركاء في ثلاث أو أربع : (الماء والكلأ والنار والملح)» . ومثل أرض الحمى المحمية للنفع العام كرعي خيول الجهاد فيها ، قال البخاري : بلغنا أن النبي ﷺ حمى النقيع ، وأن عمر حمى شرَف والرَّبذة » والنقيع : كل موضع ينتقع فيه الماء ، فيكثر فيه الخصب ، والشرف : موضع بمكة ، والربذة : موضع بين مكة والمدينة .

٤ـ السمو والكمال والشمول في التشريع القرآني : فلا يقتصر القرآن على تنظيم العلاقات الاجتماعية وحدها ، كما يُعنى القانون الوضعي ، منعزلة عن الرقابة الإلهية في السر والعلن ، وإنما لا بد من مراعاة القيم الخلقية ، وهي واجبات لا مجرد آداب ، وتتآزر أحكام العقيدة والعبادة والمعاملة والأحكام العامة ، كالشورى والعدالة والحرية ، والسلم والأمان والحفاظ على الكرامة الإنسانية ، لتربية الإنسان تربية عالية ، وتهذيب طبائعه ، وإيجاد نواة المجتمع الفاضل القائم على الجمع بين المثالية والواقعية ، قال الله تعالى واصفاً قرآنه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت ـ السجدة : ٤١ـ٤٢] وقال سبحانه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمته المشهورة لواليه عمرو بن العاص

على مصر : (متى تعبدتم ـ أو استعبدتم ـ الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ؟ !

٥ـ إصلاح الجانب الإيجابي والسلبي في التشريع : فهو تشريع يأمر بالمعروف والفضيلة ويرغِّب فيه ، وينهى عن المنكر أو الرذيلة ، وينفِّر منه ويزجر فاعله ؛ لأن غايته تحقيق دعائم المجتمع الفاضل القائمة على جلب المصالح ودرء المفاسد ، والترغيب في الخير لذاته حباً فيه ، لا بقصد المنفعة فقط ، ومنع الشر لذاته كرهاً فيه ، وتفادياً لآثاره الضارّة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . وإذا أخذ الفقهاء بمبدأ المعاملة بالمثل مع الأعداء ، فلا يُتنزّل لمستوى غير المؤمنين فيما يمس مبادىء المروءة والكرامة ، فلا يجيز مثلاً المثلة أو التمثيل بقتلى العدو ، وإن فعل العدو ذلك بأسرى المسلمين ، ترفعاً عن مجاراة القبيح .

٦ـ الجزاء في التشريع القرآني مزدوج : دنيوي وأخروي ، لإصلاح النفوس البشرية ، وزجر الجناة ، وتوفير حسن السيرة والاستقامة ، على أساس من الحق والعدل والرحمة والخير الدائم .

* * *

القيم التي دعا إليها الإسلام

القيم : هي المعايير والمبادئ التي تجسّد وجدان المجتمع ، وتوجه سلوك أفراده وجماعاته ، وتعبر عن خصوصيته أو هُويته ، وتكون مثلاً أعلى مجرداً للحكم على الأشياء ، رغبة أو سخطاً .

وبما أن أغلب التصنيفات للقيم تضع القيم الدينية في أعلى هرم القيم ، فيحسن بيان القيم التي دعا إليها الإسلام ، في صيغة أوامر ونواه تقتضي الالتزام ، أو ترغيب وترهيب ، أو تنبيه إلى الخير والشر . ومنظومة القيم الإسلامية : هي مجموعة متكاملة من المبادئ التي تعبر عن مذهب خاص في الحياة ، وجعل الثقافة الإسلامية ذات ملامح مميزة .

وهذه القيم ثلاث : فردية واجتماعية وإنسانية ، وهي تتضمن كل الأخلاقيات اللازمة للتقدم الحضاري ، وبناء الذات المسلمة والمجتمع الراقي والدولة الرشيدة .

أ ـ **القيم الفردية** : تتحقق القيم الشخصية أو الفردية من خلال مبدأين : تحقيق العبودية الخالصة لله (وأصلها التذلل والخضوع والتواضع) ومبدأ الاستعانة بالله تعالى . والعبادة بالمعنى العام : هي العبودية معنى وحقيقة ، وكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده ، فهو عبادة . والعبودية أصل من أصول تحديد العلاقة مع الله ، وأصل العبودية : الخضوع والتذلل ، والعبادة : الطاعة . وقد وردت عدة نصوص قرآنية تؤكد على هذا المطلب الواقعي والإلهي العادل ، مثل

قوله سبحانه : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء : ٣٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وقوله عز وجل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] فالعبادة تقترن بالاستعانة بالله ، وطلب الهداية والتوفيق منه للوصول إلى أفضل المناهج والطرق ، وإصلاح النفس والحياة الدنيوية . والعبادة تنتهي إلى نتيجتين :

الأولى ـ الاتجاه إلى تربية الوجدان الديني وتنمية الوجدان الفطري الذي يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفاً مع غيره ، ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إنساني متوادّ متحابّ .

والثانية ـ أن غاية العبادة في الإسلام ليست مجرد التقوى السلبية ، وإنما تتجه إلى النفع الإنساني العام ، وإلى إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع ، متآزر متعاضد غير مشتت ولا ممزق الأوصال .

وطريق بناء هذه القيم : تقوى الله (امتثال الأوامر واجتناب النواهي) وحب العلم واحترامه ، والعمل والسعي من أجل الحياة العزيزة الكريمة ، ويتحلل ذلك إلى القيم الفكرية والثقافية والعملية والاقتصادية التالية ، من رفض الأمية وتكريم العلم وتنمية المعارف ، طلباً وحملاً ونشراً وتراثاً ، والدعوة إلى الإبداع والتفكير في آلاء الله وفي الطبيعة وفي الذات الإنسانية ، والبحث عن المعرفة والحكمة من أي وعاء خرجت ، والبحث الدائب عن فرص العمل النافع الشريف والنتاج المثمر ، والاستثمار النافع ، ومنع الاكتناز والاحتكار ، ومسؤولية الحاكم عن أعمال النفع العام والخدمات ذات الصفة الاجتماعية ، والدفاع عن حقوق البلاد ، وصيانة الحرمات الدينية ، وكون الثروات العامة ملك الأمة ، والدولة إنما تدبرها لمصلحة المجتمع .

أما الدعوة إلى العلم وتنمية المعارف وجعله فريضة ، وأن التقصير فيه يوجب المسؤولية والتعزير ، ففيها نصوص كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] وقوله ﷺ فيما يرويه ابن عبد البر عن أنس : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وفي حديث الأشعريين حول تعليم جيرانهم وتعلمهم ، جُعل التقصير في العلم مستوجباً للعقوبة .

وأما المطالبة بالعمل : فالقرآن كله دعوة حازمة للعمل ، مثل قوله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] وقوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] وقوله عز وجل :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٠٥] . والعمل نوع من العبادة ، ويرتبط العمل بنتيجته المترتبة عليه ، وهي شكر الله المنعم واستغفاره ، وتذكر المسؤولية الكاملة عن عمله في هذه الدنيا ، قال الله تعالى :

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : ٦١] .

والمسؤولية في الإسلام عن كل شيء من العلم والعمل دليل على تكريم الإنسان ، وبها يقوم ميزان العدل الإلهي ، فليس من العدل أن يتساوى الناس المقصرون مع الناس المبدعين العاملين المستقيمين . وليس من العدل أن يثاب إنسان بحسنات الآخرين . والمسؤولية في الإسلام فردية ، وهي من مفاخر الشريعة الإسلامية ، كما أوضح القرآن الكريم : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

وأوضح هنا بعض القيم الفردية فيما يأتي :

أولاً ـ تهذيب الإنسان والسمو بخلقه :

في الإنسان غريزة الخير وغريزة الشر ، ولكن لا بد من أن يسمو الإنسان بنفسه وبأخلاقه عن كل الشرور والمنكرات ، أو القبائح والفواحش ، لتتحقق سعادته وسعادة أبناء المجتمع . لذا أمر الله تعالى كل إنسان بتزكية نفسه في قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ـ١٠] أي : قد فاز بالبغية وظفر بالمطلوب من طهّر نفسه وأنماها بالتقوى والفضيلة ، وقد خسر من نقّصها وأهملها بالفجور والمعصية أو الرذيلة .

إن تهذيب النفس ـ كما تقدم ـ هو غاية العبادة والشريعة الإلهية ، وأساس كل صلاح وتقدم ، وليس المراد من التخلق بالأخلاق الفاضلة أنها مجرد قيم ، بل لا بد من انفعال النفس وتأثرها بما ينبغي أن يكون فيفعل ، وبما لا ينبغي ألا يكون فيترك . والذي يجب تركه داخل في دائرة الحرام أو المحظور ، كما صرح القرآن في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وقد جعل الإسلام الخلُق الحسن وعاء الدين ، روى الحكيم الترمذي عن أنس حديثاً : « الخلُق وعاء الدين » وفي حديث آخر صحيح ، سأل رجل : « ما الدين يا رسول الله ؟ فقال : حسن الخلق » ومن توصيات الرسول ﷺ : « أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة : تقوى الله ، وحسن الخلُق » . وروى البيهقي عن ابن عباس حديثاً : « خياركم : أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، وشراركم : الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » . وجعل النبي ﷺ الخلق متعلقاً بصميم الرسالة وغاية النبوة ، فقال ـ فيما يرويه البخاري في الأدب

والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة ـ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أو « صالح الأخلاق » .

وإصلاح النفس أو الباطن أساس لكل إصلاح ظاهري أو خارجي ، وشعبة الأخلاق هي الكفيلة بالإصلاح الباطني ، وهي الشجرة الطيبة التي ثبت أصلها وطاب ثمرها ، وكانت مصدر إشعاع بالخير لصاحبها وللأمة . والخلق الحسن : هو صمام الأمان عن كل انحراف ، والمعتصم الذي يتمسك به من أراد أن يكون مسلماً حقاً .

وشعبة الأخلاق ذات جانبين : إيجابي وسلبي ، فالأول : مثل الصدق والإخلاص ، وإتقان العمل ، والوفاء بالعهد ، والأمانة ، والحلم والعفو ، والسخاء ، فلا بد من تحلي النفس بها ، والعمل بموجبها . والثاني : مثل الحقد ، والحسد ، والنفاق ، والجبن ، والبخل ، والكذب ، والخيانة ، والإفساد ، والغضب ، وحب الانتقام أو الثأر ، ولا بد من ترفع النفس عنها ، وتطهيرها منها . وصف الله المؤمنين بقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] . وجِمَاع الخير الذي استحق به النبي ﷺ مدح الله له :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] مجتمع في آية :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وإن أي فصل بين شعبة الأخلاق والإيمان بوحدانية الله والعبادة والشعائر الدينية ، والتمتع بالحياة ، ونظرة الإنسان إلى الكون ، يؤدي إلى تهديم النفوس ، وتدمير الحياة ، وانهيار المجتمع ، لذا كان التكليف بالأخلاق أمراً أساسياً متمماً لجميع معطيات الشريعة الإلهية .

ثانياً ـ دعوة الإنسان إلى تدبر مشاهد الكون وإلى التفكير في شؤونه :

التفكير أو إعمال العقل والنظر فريضة إسلامية في الكون كله : أرضه وسمائه ، وأفلاكه وشموسه ونجومه ، ونباتاته وجباله ووهاده والكائنات الحية والإنسان ، وما أودع في الكون من أسرار ، وبني عليه من نظام وإحكام . وهو مؤدٍّ إلى التعرف على أن الله هو الخالق المبدع ، وأن الإنسان وسيلة بناء الكون وإعماره ، وتقدمه وتحضره ، وعليه أن يتابع التأمل في شؤونه ومصالحه ، ليحيا حياة طيبة ، ويعيش عيشة سعيدة . وما أكثر الآيات الداعية إلى التأمل في مشاهد الكون ، مثل قوله تعالى الآمر بذلك : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] ومثل إثارة موجبات النظر : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] وآيات : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٥ـ٩٦].

واختص الله العلماء بجدوى النظر ، وأشاد بهم في أنهم أولى الناس بالتفكير والتأمل في الكون ، والمبادرة إلى خشية الله ومعرفته ، وإصلاح الحياة في ضوء تأملاتهم واهتدائهم إلى وحدانية ربهم ، فقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ـ٢٨] وهذه الآيات تتعلق بالكائنات الحية ، وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والطبيعة المشاهدة .

ووحدة الأنظمة الكونية تدل على وحدة الخالق ، قال الله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٢ـ٤٤] . والعقل المفكر في شؤون الحياة يقضي بالتوحيد ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

وعلى الروح الإنسانية مهمة الاتصال بالذات العلية لتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس ، ولا يدركه العقل . وبوجود العقل والروح في الإنسان استحق أن يكون خليفة على هذه الأرض ، وتهيأ له أن يحمل عبء الأمانة العظيمة التي أشفقت سائر الموجودات من حملها ، لما فيه من مؤهلات ، ومسؤولية عن العمل بعد التفكير والتأمل .

ثالثاً ـ واجبات الإنسان نحو ربه ونحو نفسه ونحو الناس :

امتاز الإسلام عن غيره من الأديان بأنه نظم علاقات الإنسان الثلاث : علاقته بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بمجتمعه أو الناس من حوله . وذلك إدراكاً لأهمية وجود التكامل والتآزر بين أنواع هذه العلاقات ، لتكوين الإنسان المتميز والمجتمع الفاضل .

أما علاقة الإنسان بربه : فتقوم على هدي الإيمان الصحيح بالله تعالى ، إثباتاً للذات الإلهية ، وتوحيداً للألوهية ، وتمجيداً للربوبية . كما أن هذه العلاقة تتطلب أرضية صلبة تملأ النفس خشية ومهابة ، وتطفىء الظمأ النفسي والتعطش الفطري نحو الاتصال المعنوي بالله تعالى ، وذلك بالعبادات المفروضة التي سبق الحديث عنها من صلاة وزكاة وصيام وحج ، فهي تبلور فكرة توحيد الإله ومعرفته وتمجيده ووصفه بصفات الكمال التي هي الغاية الأولى من الدين . وتكون

العبادة هي المقصد الثاني من الشريعة الإلهية . وقد عرفنا أن الإيمان عقيدة وعمل ـ كما جاء في الحديث النبوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ : « الإيمان : معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح » أي الأعضاء .

والعبادة التي هي عنوان على طاعة الإله المعبود بحق وإذعان كامل نفسياً وعضوياً ، مع الإيمان : يقصد بهما إصلاح الفرد والجماعة ، وتهذيب النفوس وتربيتها وتقويم الطباع والأخلاق ، وزرع المعاني والصفات الخيّرة ، والتخلي عن المفاسد والقبائح والشرور ، فليس القصد من العبادة إذاً مجرد استرضاء الله أو استجلاب نفعه وتوالي نعمه ؛ لأن الله عادل غني عن العالمين .

والتعامل مع الناس هو معيار بناء الشخصية المسلمة ، وأساس صدق الإيمان وإخلاص العبادة ؛ لأن إغراءات الحياة ومطامع النفس وشهواتها قد تعصف بالقيم الدينية والأخلاقية ، ما لم تكن تلك القيم أساس الانطلاق الصحيح في العلاقات الاجتماعية مع الناس ، ودليلاً واضحاً على مدى الالتزام بتلك القيم واحترامها ، ومحبة الخير والنفع للآخرين ، كما يحب الإنسان لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٢ـ٣] أي : شهادة أن لا إله إلا الله . وقال النبي ﷺ ـ فيما رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة عن أنس ـ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والأخ هنا ـ كما أبان الإمام النووي في شرح الحديث ـ هو المسلم وغير المسلم .

إن قيام الإنسان بواجباته المختلفة نحو ربه ونفسه ومجتمعه برهان صادق على صدق الانتماء لدوحة الهداية الربانية ، والالتزام بالشريعة

الإلهية ، كما أنه برهان التحضر والتقدم ، وعنوان النجاح والفوز ، وأساس بناء الحياة والمجتمع على أسس صحيحة ، ترفرف في أجوائها السعادة النفسية ، وتخيّم عليها ألوية السكينة والشعور بالارتياح والطمأنينة . أما ما نشاهده اليوم من قلق واضطراب ، ومِحَن وأزمات ، وفتن ومفاسد ، فمنشؤه يقيناً فقدان القيام بالواجبات الثلاثة المذكورة .

رابعاً ـ رياضة الإنسان على مجاهدة أهوائه وتصعيد غرائزه ونزواته وبث القيم الروحية فيه :

وصف الله تعالى النفس الإنسانية بأوصاف كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] . ومنها : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦ـ٨] . والكنود : الجحود . ولكن الإنسان يستطيع إدراك عيوب نفسه ، كما قال الله سبحانه : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٤ـ١٥] . وأمام هاتين الحقيقتين أمر الله بمجاهدة النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج : ٧٨] ووصف النبي جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، في مقابل جهاد العدو الخارجي ، وهو الجهاد الأصغر .

وأبان علماؤنا كأبي حامد الغزالي حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » طريق المجاهدة والرياضة ، والاشتغال بتزكية النفس ، وتهذيب الطبائع والأخلاق ، ومقاومة الأهواء والشهوات ، وذلك بالالتفات إلى أمراض القلوب ، ومعرفة عللها وعلاجها وتطهيرها من الضغائن والأحقاد والحسد والتملق والرياء ونحو ذلك . ومعالجة النفس هو المراد بقوله تعالى كما تقدم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] وإهمالها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ١٠] .

وليست المجاهدة والرياضة ، والاشتغال بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، أمراً صعب المنال ، وإنما هو يسير جداً إذا اعتمد الإنسان على قوة الإرادة ، وتذكّر المسؤولية أمام الله ، وخشي من أهوال الحساب بين يدي ربه ، وراقب الله في السر والعلن ، وترفّع عن وساوس الشيطان ، وصدَّ النفس عن الجموح في ميدان الأهواء والشهوات ، وصعّد نزواته أو عدَّل غرائزه بتوجيهها نحو الأسمى والأفضل ، ومن أجل توافر الخير والمصلحة الحقيقية ، وبالنظر إلى مستقبل العمر والحياة الأخروية .

إن تزكية القيم الخلقية أو إنماءها وإعمالها ، وترويض النفوس على احترامها ، والالتزام بمقتضياتها ، هو طريق النجاة عند الله ، وسبيل الفلاح والسعادة . ولو كانت الأخلاق ـ كما قال الغزالي في الإحياء ـ لا تقبل التغيير ، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله ﷺ ـ فيما رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ ـ « يا معاذ حسِّن خلقك للناس » . وكيف ينكر هذا في حق الآدمي ؟ وتغيير خلُق البهيمة ممكن ، إذ يُنْقَل البازي من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية عن الصيد ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق .

إن إسراف الناس والانسياق وراء الأهواء والشهوات مجلبة لدمار الصحة والعافية ، وتهديم للبنية الإنسانية ، وتعطيل للعقل والفكر ، ولهداية الله في شرائعه وكتبه السماوية ، وإفساد للحياة البشرية ، وجهل وطيش ، وحمق وسفاهة .

ب ـ **القيم الاجتماعية** : هناك قيم اجتماعية كثيرة في الإسلام ، منها

احترام الأسرة ، واعتبارها نواة البناء الاجتماعي (رعاية الوالدين ، صون حقوق المرأة ، صلة الرحم) وإيثار المروءة والعفو في العلاقات الاجتماعية والتكافل الاجتماعي ، والرعاية الاجتماعية (حق الفقير والمسكين وابن السبيل . . .) وتوفير الاحتياجات الإنسانية الأساسية ، والعدل الاجتماعي (إنكار الاستغلال غير المشروع ، شراكة الناس في الماء والكلأ والنار والملح) والمسؤولية الاجتماعية العامة (من خلال وظيفة الحسبة التي هي أمر بمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن منكر إذا ظهر فعله) .

وسأذكر هنا توضيحاً لبعض هذه القيم :

أولاً ـ موقف الإسلام من المجتمع الإسلامي : المجتمع الإسلامي مجتمع متراحم متكامل ، يؤثر الحب والود ، والاستقرار ، والخير ، والنصح لجميع أفراده ، وينشد الوصول إلى القوة والعزة والكرامة ، وتصحيح العقيدة والعبادة ، والأخلاق والسلوك الاجتماعي ، قال الله تعالى مبيناً أصول الحياة في هذا المجتمع :

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ[1] فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وفي آية أخرى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وفي وصف المؤمنين آية : ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وهذه العلاقة الطيبة القائمة على الأخوة الدينية والإنسانية ، كما

---

(١) منصوب على المدح .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] تتطلب دائماً التواصي بالحق ، كما في سورة العصر : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] . وقال النبي ﷺ - فيما يرويه مسلم عن أبي رُقيّة تميم بن أوس الداري - : « الدِّين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

والتواصي بالحق يقوم على أساس ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] بل لا بد من تخصيص فئة للإصلاح كما أمر الله سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . وقد وصفت الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس ؛ لأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر (الآية ١١٠ من سورة آل عمران) .

وتعهُّد المسلم لأخيه المسلم في حالتي الخير والشر ، بترغيبه في الأول ، وتحذيره من الثاني ، يقصد به تحقيق السعادة للجميع ؛ لأن المجتمع المسلم مجتمع متضامن متعاون ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] وقال النبي ﷺ - فيما يرويه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير - : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وفي حديث آخر عند البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري : « المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً » .

ثانياً ـ أسس المجتمع المثالي كما وضحها الإسلام وما يقوم فيه من تعاون بين أفراده :

يقوم المجتمع الإسلامي باعتباره يمثّل هداية الله على أسس كثيرة ، تكفل له الدوام والبقاء ، والعزة والحرية والاستقلال والكرامة ، والقوة والتماسك ، والجهاد في الداخل والخارج ، لتوفير الهيبة والمنعة ، وتحقيق سبل التعاون والتكافل الاجتماعي ، وإشاعة روح المحبة والتوادد . ويعتمد تحقيق أصول التكافل بين الأفراد على القواعد أو المبادىء الأربعة الآتية :

١) مبدأ الوحدة الإسلامية في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعلمية ، وما أكثر الآيات الداعية إلى الوحدة العامة ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] . أو ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢] . ونهى القرآن عن التفرق والاختلاف ؛ لأنه يضعف الأمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] أي : قوتكم ، وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

٢) مبدأ الأخوة الإيمانية والإخاء العام بين أبناء المجتمع : لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] والأخ يحرص على مصالح أخيه ، ويؤازره في السراء والضراء ، وفي المشاعر والأحاسيس ، وفي المطالب والحاجيات ، وهذه هي حقيقة التكافل الاجتماعي .

٣) مبدأ التعاون السابق ذكره : وهو التكافل والتضامن في تحقيق أمر ما ، على أسس من الحق والخير والفضيلة والمصلحة العامة ،

لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] والبر : كلمة جامعة لكل خصال الخير والمعروف ، والتقوى : مجموعة الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية .

٤) مبدأ الإيثار والتضحية : وهو أسمى درجات الإيمان والحب والتكافل في حال الصحة والمرض ، والسلم والحرب ، والغنى والفقر ، والعلم والثقافة ، لقوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] والخصاصة : الفقر والاحتياج .

وأنواع التكافل الاجتماعي في الإسلام عشرة هي بإيجاز شديد :

١) التكافل الأدبي ، كما جاء في حديث الحاكم والطبراني وغيرهما : « أحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك » .

٢) التكافل العلمي تعلماً وتعليماً ؛ كما ورد في حديث أبي داود والترمذي والحاكم : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

٣) التكافل السياسي : كما يدل عليه قوله ﷺ ـ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما ـ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

٤) التكافل الدفاعي عن شرف الأمة وكيان البلاد وحرية الدعوة الإسلامية : كما أمر الله تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [التوبة : ٤١] .

٥) التكافل الجنائي : كما دلت الآية القرآنية : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وفي ظل المبدأ الشرعي وقول الإمام علي رضي الله عنه : « لا يطل دم في الإسلام » أي : لا يهدر .

٦) التكافل الأخلاقي : أي أن المجتمع مسؤول عن صيانة الأخلاق العامة ، للمحافظة على النظام ، ومنع الفوضى والفساد والانحلال ، يدل لذلك حديث السفينة المعروف الذي رواه البخاري والترمذي في منع من أراد خرق السفينة لينجو الجميع ، ومطلعه : « مثل القائم في حدود الله . . . » والحديث الذي رواه مسلم والترمذي والنسائي : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

٧) التكافل الاقتصادي : بالحفاظ على قوة اقتصاد الأمة وثروات الأفراد والجماعات من الضياع والتبذير ، بدليل جواز الحجر على السفهاء (المبذرين) والمجانين والمعتوهين في آية : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء : ٥] وعلى المفلسين المديونين ، وعلى اليتامى القصّر ، كما أن للدولة منع الاحتكار والتلاعب بالأسعار والغش من التجار وغير ذلك .

٨) التكافل العبادي : بأداء الشعائر من أذان وإقامة وأداء صلاة الجمعة والجماعة والعيدين في الأوقات المخصصة لذلك ، وأداء صلاة الجنازة التي هي فرض كفاية .

٩) التكافل الحضاري : بعمل كل ما يفيد الأمة دنيوياً ودينياً وسياسياً ، وتنمية الزراعة والتجارة والصناعة ، وتعلم العلوم المختلفة النظرية والعلمية التي تحتاجها الأمة باعتبارها فرض كفاية على الأمة ، قال ﷺ ـ فيما رواه البزار ـ : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

١٠) التكافل المعاشي : وهو ما يعرف بالتكافل الاجتماعي ، من إلزام الأغنياء برعاية أحوال الفقراء والمعدمين والمرضى وذوي

الحاجة ، قال عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الطبراني عن علي رضي الله عنه ـ « إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ، ويعذبهم عذاباً أليماً » . وفي حديث آخر رواه الطبراني والبزار عن أنس : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم به » .

ثالثاً ـ تفصيل الإسلام كل ما يتصل بالمعاملات وأحكام الزواج والطلاق والإرث وغيرها :

الإسلام دين ودولة ، وعقيدة وشريعة ، وحياة وعبادة ، وحّد بمنهجه الرائع بين العبادة والمعاملة ، والعقيدة والسلوك ، والروحانيات والماديات ، والقيم الاقتصادية والمعنوية ، والدنيا والآخرة ، والأرض والسماء . ولم يترك جانباً من الجوانب التشريعية إلا عالجه ونظمه إجمالاً أو تفصيلاً ، وأقام شرائعه على اليسر والسماحة ، ودفع الحرج والمشقة ، ورعاية الحوائج والمصالح .

وبيان الأحكام في القرآن ـ كما تقدم ـ قد يكون تفصيلياً يعرض لأكثر الجزئيات ، كما في العبادات والأحوال الشخصية من زواج وطلاق وعِدّة ونفقة وغيرها ، والمواريث ، والمعاملات من بيع وإجارة ورهن وشركة ، والعقوبات من قصاص وحدود وتعازير وغيرها ، والحكمة في ذلك إما تضمنها معنى التعبد والالتزام بما ورد عن الشرع ، وإن جاءت السنة النبوية موضحة مجمل العبادات ، كأحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة ، وإما التنبيه إلى المصالح والمقاصد التشريعية التي يراد حمايتها .

والأمثلة على ذلك : فصّل القرآن الكريم نظام الميراث في آيات

ثلاث من سورة النساء هي (١١ ، ١٢ ، ١٧٦) وجعل الإرث مرتبطاً بنظام النفقات التي يكلف بها الرجل ، لا المرأة ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [الطلاق : ٧] وقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

وكذلك فصّل القرآن أحكام الأسرة ؛ لأنها إحدى لبنات المجتمع الأساسية ، ودعامة الأمة ، ورغّب الشرع في الزواج باعتباره طريق الحفاظ على النوع الإنساني ، فأبان أحكامه ، ونظّم علاقات الزوجين على أساس من الحق والعدل والفطرة الإنسانية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] ومثل ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣] ومثل ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] وآية : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] . وأبان القرآن أنواع المحرمات من النساء : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] . وأوضح القرآن أحكام الطلاق في آية : ﴿ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وغيرها ، وأحكام العدة في آية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ [الطلاق : ١] وعدة الحمل في السورة السابقة نفسها (آية ٦) وعدة الوفاة في (سورة البقرة آية ٢٣٤) وحكم الرضاع في آية : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] وغير ذلك .

ونظم الإسلام قواعد الجهاد والغنائم الحربية والأسرى في سور : البقرة والنساء والأنفال والتوبة ومحمد ، مؤثراً السلم على الحرب ، كما نصت الآية : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٦١] وقوله سبحانه : ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ

﴿ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] ومصير الأسرى إما المن (إطلاق سراحهم بلا مقابل) أو الفداء (مبادلة الأسرى) في (سورة محمد : ٤) . وقدس الإسلام المعاهدات ، كما في آية : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] وآية : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وقد يكون بيان القرآن إجمالياً عاماً ، يعرض القواعد والمبادئ الأساسية ، مع التعرض أحياناً لبعض الجزئيات والفروع ، مثل قاعدة الأحكام المدنية في آية : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] وكون التجارة والعقود بالتراضي : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] وإباحة الرهن الحيازي وشرطه : ﴿ فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] وتشريع الصلح : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨] ومشروعية الإجارة في آية : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] وآية : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٦] وتعظيم الأمانات واحترام العدل في الحكم في آية : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] . وآية : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] والتزام الشورى في آية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وإعلان الحرية ومنع الإكراه في الدين : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] والمساواة المقررة في الأثر : « الناس سواسية كأسنان المشط » والتعاون في آية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ج ـ **القيم الإنسانية** : هناك عدة قيم إنسانية وسياسية في شريعة القرآن، منها حماية حقوق الإنسان بوصفه إنساناً من غير أي تمييز في الجنس

والعرق واللون ، كحق الحياة والحرية والمساواة ، والعدالة والتملك والتعليم ، والعمل والكرامة ، كما جاء في آية : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] وآية : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وكل ذلك في إطار الدعوة إلى الوحدة الإنسانية ، كما نصت الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] من غير أن يكون هناك امتيازات عنصرية ، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ومن هذه القيم : الحفاظ على تراث الحضارة الإنسانية والعلمية وتنميتها إذا لم تتصادم مع أصول العقيدة والتشريع .

ومنها الشورى قاعدة الحكم الأمثل أو الديمقراطية ، والعدل في الحكم والقضاء وفي المعاملات ، كما تقدم ، حتى مع الأعداء ، كما تنص الآية : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] والشنآن : البغضاء ، والعدل يقضي برفع الظلم والتظالم ، كما في آية : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٧] وغيرها .

ومنها الحرية قاعدة الحياة الإنسانية والاجتماعية ، بتحرير الإنسان من الاستغلال الظالم ، وحرية النقد والتعبير والتفكير والحرية المسؤولة .

ومنها المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والكرامات أساس العلاقات ، ومنها المساواة في الفرص (تكافؤ الفرص) والسماحة الفكرية والاجتماعية ، والمسؤولية عن العمل .

والأصل العام : المساواة بين الرجل والمرأة في الأحكام الشرعية ، والقربات الدينية ، والحقوق الاجتماعية ، إلا ما تقتضيه ظروف الفطرة الإنسانية ، كقضايا الشهادة في المعاملات والجنايات ، أو تعظم فيه المسؤولية ، كالولايات العامة ، أو تراعى فيه واجبات الإنفاق على الأسرة ، كمسائل الميراث أحياناً . ومن المعروف أن الإسلام كرّم المرأة ، وصان سمعتها وكرامتها ، وحماها من الاستغلال السيِّئ ، وأوصى القرآن المجيد والنبي ﷺ بالمرأة نصف المجتمع في مثل آية ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء : ١٩] وحديث : « استوصوا بالنساء خيراً » في حجة الوداع .

ومن أهم القيم الإنسانية في الإسلام ـ كما تقدم ـ الدعوة إلى التآخي والتعاون بين البشر ، وإلى عدم التمايز الجنسي ، كما في الآية السابقة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ . .﴾ [الحجرات : ١٣] لأن الإسلام دعوة ذات نزعة عالمية لصالح الشعوب المختلفة ، وأنه رحمة للعالمين ، وأن دعوته مفتوحة لجميع الأمم ، لا أثر فيه لنُعَرة قومية أو عصبية أو جنسية أو إقليمية ، فالإسلام ـ خلافاً لليهودية العنصرية والمغلقة ـ يبغي الخير للمجتمع الإنساني ، ويزود القلب الإنساني بزاد من السمو وغرس المشاعر الراقية والمحبة السامية للبشرية جمعاء ، يريد لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة ، ويكفل للإنسانية مزيداً من التقدم والرخاء على صعيد التعاون والسلام والإخاء ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل ، ورعاية المصالح العامة ، ولكن من غير مساس بالحقوق العادلة للمسلمين وغيرهم في ديارهم أو أوطانهم .

وكل هذه القيم سبيل للقضاء على أسباب الخصام والعداوة والمنازعات ، والأطماع والبغضاء ، والتفرق والتشتت والضياع ؛ لأن التعامل في ظل شريعة القرآن يقوم على أساس رحمة القوي بالضعيف ، ويعتمد على قاعدة المحبة والإيثار ، من غير طمع المؤمنين في خيرات أو ثروات الآخرين ، بل وحمل المستضعفين في المجتمع الإنساني نحو الوحدة والتعاون والتضامن ، والعزة والكرامة والسمو ، ومن غير اتجاه بالتوجه نحو الطبقية أو الصراع الطبقي أو الامتيازات العرقية أو الأسرية أو السلطوية ؛ لأن الكل في نظر الإسلام سواء .

* * *

obeikandl.com